المبحث الثاني

الجزائر والثورة

انطلقت الثورة الجزائرية المسلحة مع أول نوفمبر ١٩٥٤ في وسط أجواء كان يبدو فيها استحالة قيامها ،ذلك أن الاستعمار الفرنسي وبنهاية الحرب العالمية الأولى كان قد استطاع القضاء على المقاومة المسلحة التي واجهها منذ الغزو في عام ١٨٣٠ والتي استمرت وإن بشكل متقطع لمدة ثمانون عاما،وبدا الجهاز الاستعماري متمكنا إلى الحد الذي أصبحت فيه المقاومة المسلحة عملا انتحاريا .

ومع انسداد أفق العمل المسلح والاتجاه إلى العمل من خلال الأشكال السياسية ،لم يعد أمام الشعب إلا ملجأ وحيد هو التمسك بشخصيته وثقافته الوطنية والانغلاق عليها فدخل المجتمع الجزائري (شأن كل المجتمعات المستعمرة)في حالة من الركود أصاب كل مناحي الحياة ،ويصف فانون هذه الحالة قائلا"فليست الأرض هي المحتلة ،ولا المطارات والموانئ ..فإن النظام الاستعماري الفرنسي قد استقر في صميم الفرد الجزائري نفسه ،وشرع فيه بعمل مدعم لإخراجه من ذاته ،وللاجتثاث العقلي فليس هناك احتلال للأرض واستقلال للأشخاص ،إن البلاد كلها وبتاريخها ونبضها اليومي ،هي التي ينكر وجودها وهاهي التي تشوه على أمل الوصول إلى محقها نهائيا وفي ظل هذه الشروط فإن تنفس الفرد يكون تنفسا مراقبا، ومحتلا "[1] .

وبقيام ثورة نوفمبر ١٩٥٤ تبدل الوضع تماما وحدثت على أرض الواقع تغيرات هائلة مست كلا من الأفراد والمجتمع والقيم السائدة، وللوقوف على مدى التغير الذي أحدثته الثورة يلزم أن نقف على بعض ملامح مجتمع ما قبل الثورة، فهو مجتمع.

(١) فانون، سوسيولوجيا الثورة، م س ذ، ص٥٩.

يمارس العنف ضد أفراده ويستنفذه في خصومات يقتتل فيها الأخوة على نحو ما سبق توضيحه

مجتمع يسلك أفراده سلوكا هروبيا، يبدو ذلك واضحا في صراعات القبائل ومعارك الثأر فيما بينها "حين يخوض المستعمر معارك الثار بكل قوة إنما يحاول أن يقنع نفسه بأن الاستعمار لا وجود له ..هذا نوع من السلوك الهروبي فذلك يعميه عن رؤية العدو الحقيقي"[1].

مجتمع تنتشر فيه الجريمة ذلك أن الأهالي في ظل الوضع الاستعماري " يكونون منحصرين فيما بينهم،فكل واحد منهم يجنح إلى اتخاذ الآخر ستارا له، وكل واحد منهم يحجب عن الآخر عدو أمته"[2].

مجتمع يقف موقفا سلبيا من التقدم العلمي والتقنيات الحديثة لارتباطها بالمستعمر فيشير فانون إلى رفض الجزائريين لاقتناء أجهزة الراديو ،باعتبار أن راديو الجزائر قبل الثورة كان يمثل في نظر الشعب صوت الثقافة الاستعمارية ومن ثم لم يكن القليلون من الجزائريين يقدمون على ابتياع أجهزة الراديو،وكذلك الموقف من الطب الحديث حيث كان الجزائريون لا يثقون في الطبيب الأجنبي الذي كان يمثل سلطة الاستعمار وينظرون إليه على أنه جزء لا يتجزأ من النظام الاستعماري .

ومع بدء الكفاح المسلح وتوجه العنف في مجراه الصحيح إلى العدو الحقيقي، اختفت كافة المظاهر السلبية من اقتتال الأخوة و القبائل ليحل محلها تكاتف وتضامن وانتهت الصراعات القبلية كما لوحظ اختفاء جرائم الحق العام منذ عام١٩٥٤" فكأن النضال القومي قد وجه الغضب كله، وجعل جميع الحركات العاطفية أو الانفعالية قومية"[3] وبنفس القدر فقد تغير الموقف من التقدم العلمي والتقنيات الحديثة، وذلك ما سيتم تناوله في هذا المبحث على النحو التالي :

أولا: الثورة والمرأة.

ثانيا: الثورة والأسرة .

ثالثا: الثورة والمجتمع.

(١) فانون، معذبو الأرض، م س ذ، ص ٥٨.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٨٩.

(٣) نفسه.

أولا : الثورة والمرأة

للمرأة بشكل عام وباعتبارها نصف المجتمع وعلى أي وضع كانت ، دور كبير في أي مجتمع ،وفي الجزائر بوضع خاص لعبت المرأة دورا أساسيا في الحفاظ على الشخصية الوطنية في مواجهة محاولات فرنسة المجتمع الجزائري فكانت هي الملاذ الذي لجأت إليه الشخصية الوطنية في شبه عفوية ورد تلقائي[١] .

وفي هذا السياق نتطرق إلى دراسة الأساليب التي لجأ إليها الفرنسيون في تعاملهم مع قضية المرأة ودور الثورة الجزائرية في التغير الذي طرأ على المرأة الجزائرية وعلى تغير القيم التي حكمت تعامل الأسرة والمجتمع معه.

١- الاستعماريون الفرنسيون والمرأة الجزائرية :

يرى فانون "أن مسألة المرأة الجزائرية كانت من الأمور غير المفهومة في دنيا الاستعمار فقد حفلت دراسات علماء الاجتماع بدراسات حول المرأة الجزائرية التي توصف تارة بأنها عبدة للرجل وتارة أخرى بأنها سيدة البيت بلا منازع"[٢] ، وأدرك الفرنسيون أن المرأة الجزائرية هي محور المجتمع الجزائري وأن لها " ولاية أساسية أكثر أهمية تقف خلف ولاية الأب المرئية الظاهرية"[٣] ، واستخلصوا من ذلك أن كسب المرأة إلى جانب القيم الأجنبية وانتزاعها من نظام حياتها الخاص يحقق الحصول في نفس الوقت على سلطة حقيقية على الرجل، ومن ذلك الفهم صاغت الإدارة الاستعمارية نظرية سياسية مفادها"إذا أردنا أن نضرب المجتمع الجزائري في صميم تلاحم أجزائه وفي خواص مقاومته، فيجب علينا قبل كل شيء اكتساب النساء"[٤] وفق صيغة" لنعمل على أن تكون النساء معنا وسائر الشعب سوف يتبع"[٥] ، ويحلل فانون الميكانزم الاستعماري المتمثل في السعي لتمزيق المجتمع الجزائري وذلك باتخاذه وضع المرأة موضوعا للعمل في أكثر من اتجاه،فعلى مستوى المرأة تنبري الإدارة

(١) محمد الميلي، م س ذ، ص١٤٤.
(٢) فانون، خمس سنوات على الثورة الجزائرية، م س ذ، ص٥٨.
(٣) المرجع السابق، ص٢٨.
(٤) نفسه.
(٥) المرجع السابق، ص٢٧.

الاستعمارية بالدفاع عن حقوق المرأة المهانة والمهملة وتتكاثر جمعيات التضامن مع النساء الجزائريات مستخدمة المساعدات الاجتماعية في تطبيق خطة متكاملة لتسريب الأفكار" وأن ما يشرع به منذ البداية هو حصار النساء المعسرات، حيث يبذر مع كل كيلو من الدقيق يجرى توزيعه مقدار من السخط على الحجاب وعلى نظام الخبر ...ويوصف لهن الدور المترتب عليهن القيام به، وترصد الإدارة الاستعمارية مبالغ ضخمة لهذه المعركة"[1].

وفيما يخص الرجال الجزائريون فإن الإدارة الاستعمارية تحاول أن تحيطهم بإسار من الذنب ،فتوصف إمكانيات المرأة التي أهدرها الرجل وحولها إلى شيء عديم القيمة وغير إنساني ويصبحون من ثم موضع انتقاد زملائهم الأوروبيين.

وفي سياق محاولة تحطيم أصالة الشعب، أولى المسؤولون عن الادارة الفرنسية اهتماما كبيرا بالحجاب لإدراكهم أن الحجاب أصحى رمزا للمرأة الجزائرية وتمسكها بالتقاليد في مواجهة عمليات التغريب والفرنسة، وبهذا المعنى أصبح الحجاب مدار معركة ضخمة تعبئ لها قوى الاحتلال كل إمكانياتها،وبدأت هذه المعركة منذ سنوات ١٩٣٠ -١٩٣٥ وجند فيها كل الخبراء مستندين إلى تحليلات علماء الاجتماع ،وكان نجاح هذه الجهود يعنى بأن المجتمع الجزائري أصبح" مجتمعا مفتوحا تأذن نظمه الدفاعية بالتفسخ ويكشف على نحو سلبي بأن الجزائر بدأت في التنكر لنفسها"[2]، ويروى فانون في كتابه (خمس سنوات على الثورة الجزائرية) واقعة لها دلالتها،أثناء استقبال ديجول في الجزائر عام ١٩٥٨ ،حيث طلبت السلطات الفرنسية من ابنة أحد الموظفين في إدارتها أن ترتدي الحجاب وتقف في صفوف المشاهدين الجزائريين حتى إذا اصدر ديجول أمرا بالتخلص من الحجاب تبادر فورا يرمي حجابها فيما يفهم منه أنه استجابة لطلب الزعيم الفرنسي.

ويرصد فانون رد الفعل التلقائي لهذا الحدث الذي أدى بعدد كبير من الفتيات السافرات إلى العودة للحجاب حتى لا يتصور الناس أن سفورهن جاء استجابة للطلب الفرنسي .

ويخلص فانون من هذه الواقعة إلى أنه في مواجهة الإستراتيجية الاستعمارية

(١) المرجع السابق، ص٢٩.
(٢) المرجع السابق، ص٣٤.

لتفتيت المجتمع الجزائري وتصميمه على نزع الحجاب عن المرأة الجزائرية ،فإن ذلك يدعو المستعمر إلى تحديد موقف معاكس و بذلك اكتسب الحجاب أهمية متزايدة لم تكن موجودة من قبل،واستخلص ما اعتبره قانون علم النفس الخاصة بالاستعمار وهو :" أن الفعل ومشاريع المحتل هي التي تحدد في المراحل الأولى مراكز المقاومة التي تنتظم حولها إرادة البقاء في شعب ما"[1]،ويكون من الطبيعي في هذه الحالة أن يقارن موقف الجزائرية من الحجاب بموقفها الكلي من الاحتلال، ويتخذ الصمود أمام المحتل معنى إلحاق الفشل والهزيمة به ، وبهذا المعنى يكتسب الحجاب صفة التابو ويصير من المحرمات التي لا يجوز المساس بها، وذلك هو ما سيلحقه التغيير مع اندلاع الثورة.

٢- الثورة والمرأة الجزائرية :

بعد قيام الثورة الجزائرية ومع اتساع نطاق العمليات ولضرورات نضالية اتخذت قيادة الثورة قراراً بإشراك المرأة في نشاطات جبهة التحرير الوطني وأسندت لها مهام نضالية متنوعة،مما استدعى سفورها حتى لا تثير الريبة بحجابها، وفي مرحلة لاحقة بعد انتباه المستعمر الفرنسي لدور النساء في الثورة وأصبح حذرا من السافرات وأصبحن محل توقيف وشبهه، عادت الجزائرية المناضلة لارتداء الحجاب مرة أخرى مخفية السلاح تحته، وبهذا المعنى فقد الحجاب صفته القديمة كتاب و لا يمس به، واكتسب معنى عمليا باعتباره أداة مقاومة، فقد كان في البداية آلية في عملية المقاومة حينما كان المحتل ينظر إليه كرمز للتمسك بالثوابت الوطنية وسعى إلى نزعه وفي مواجهة ذلك كان الإصرار على التمسك به، وفي غمار الثورة وحيثما وجدت ضرورة للسفور كان ذلك يتم، وحينما رؤى لضرورات العمل العودة إليه تمت عملية الرجوع ،فهو حجاب يخلع ثم يعاد ،حجاب يستخدم كآلة، يحول إلى فن للتمويه ووسيلة للكفاح، وهكذا اختفت الصفة التي كانت عالقة به في ظل الوضع الاستعماري، اختفاءً يكاد يكون تاما أثناء كفاح التحرير.

مما يدفع إلى القول بأن الثورة كان لها الدور الأكبر في هذا التطور،إلا أن تأثير

(١) المرجع السابق، ص٣٨.

الثورة في المرأة الجزائرية لم يقتصر على هذا المجال وحسب وإنما كان أبعد مدى،فأصبحت النساء الجزائريات اللاتي كن حتى وقت قريب يلزمن بيوتهن، وجدن أنفسهن أمام دور اجتماعي يؤدينه؛ لأن الزوج الذي يكون منخرطا في الكفاح غالبا ما يتعرض للاعتقال ،فتكون النساء حينئذ هن المكلفات بالتماس وسائل العيش لضمان استمرار الحياة لأبنائهن وكذلك فإن الجزائرية التي لم تغامر بالسير في المدينة الأوروبية من قبل، ويصبح من مهامها الانتقال من مكان إلى آخر ،يكون عليها وهي تواجه عالم المحتل أن تقهر جملة وافرة من الأمور والمخاوف الداخلية،وللتدليل على حجم الثقة بالنفس التي اكتسبتها الجزائرية وعلى تحررها النفسي يقول فانون: " إن هذه الفتاة الصغيرة التي نزعت الحجاب بالأمس والتي تتقدم في المدينة الأوروبية التي يخترقها رجال الشرطة والمظليون والجنود، إنها لم تعد تمشي في ظل الحيطان كما كان ينزع بها الميل لمثل ذلك قبل الثورة"[1]،وفضلا عن ذلك فإن المرأة الجزائرية والتي أصبحت موضع شبهة بصرف النظر عن كونها محجبة أم لا وأصبحت معرضة أيضا للتعذيب، المرأة التي تنقل القنابل اليدوية عبر طرقات الجزائر، والتي تحتل مكانا بارزا في العمل الثوري و تطور شخصيتها وتعمل على نسف العالم الضيق الذي كانت تعيش فيه فتمضي جنبا إلى جنب مع الرجل متعاونة في تحطيم النظام الاستعماري وفي ميلاد امرأة جديدة ..وبالتدريج تختفي المرأة من أجل الزواج وتحل محلها المرأة من أجل العمل"[2]،ويشير فانون إلى سلوكا مغايرا يتمثل في تلك المرأة التي تنتقد زوجها إذا استشعرت عدم مشاركته في المعركة، هذا اللوم الذي يعتبر مخالفا للمألوف أصبح سلوكاً متقبلاً،ذلك أن المجتمع الجزائري وهو في معركة التحرير،يجدد نفسه ويعمل على إيجاد قيم لم تكن معروفة من قبل، مبنية على علاقات جديدة بين الجنسين "فقد كفت المرأة عن أن تكون متممة للرجل وبمعنى أدق فإنها انتزعت مكانها بقوة ساعدها"[3].

والمرأة الجزائرية التي أدت أدوارا متعددة في الثورة ولعبت دورا رئيسيا في الكفاح التحرري، تظهر إلى أي مدى لعبت الثورة دورها في التجديد الداخلي للمرأة وكيف رفعت مكانتها إلى مستوى غير مسبوق و ربما يجرى التطلع إليه في وقتنا الراهن.

(١) المرجع السابق، ص٥١.
(٢) المرجع السابق، ص١٠٧.
(٣) المرجع السابق، ص١٠٩.

ثانيا : الثورة والأسرة:

رأينا كيف كان للثورة الجزائرية دور في تبدل المرأة، ومن الطبيعي أن هذا التحول لم يكن ليتم بدون أن يشمل أكثر من منحى من الحياة الجزائرية، ذلك أن الثورة قامت بطرح جميع القضايا المتعلقة بالمجتمع وبذلت جهدا في اتجاه خلق مجتمع جزائري جديد يقوم على إعادة فرز وتقييم مجموعة القيم السائدة وخلق نظاما قيميًا جديدًا، يتحدد على أساسه موقف الإنسان الجزائري وخياراته وموقعه،ومع إعادة الفرز هذه تعرضت الأسرة الجزائرية لعدد من التغيرات والتحولات فلم تعد تلك الأسرة تشكل كتلة واحدة يتمتع فيها الأب بسلطة مطلقة،و أصبحت" المواقف المسلكية المألوفة التي كانت متينة البنيان وينظر إليها كحقائق ثابتة لا تتبدل ،تتكشف فجأة عن أنها عقيمة فتهجر"[1]،وأصبح أعضاء الأسرة يجدون أنفسهم أمام اختيارات وانتقاءات جديدة وسحب ذلك نفسه على العلاقات بين أفراد الأسرة الواحدة فتبدلت العلاقات فيما بين الأب والابن والابنة وبين الإخوة (الأخ الأكبر والأصغر) وكذلك مابين الزوج والزوجة وعلاقات الزواج والطلاق بما يعنى أن هناك تغييرًا شاملًا مس جوهر المفاهيم والأفكار، وهو ما تحاول الدراسة توضيحه على النحو التالي:

١- علاقة الأب والابن :

حين يقرر الابن أن ينضم إلى حركة الكفاح المسلح،يكون ذلك بداية التغير في علاقته بالأب ؛ لأن القضايا التي تطرح على الابن حينئذ هي قضايا جوهرية تمس الوطن والثورة وتتعدى النطاق الأسرى المحدود، هذا الوضع يدفع بالابن إلى أن يتخلص من كل ما من شأنه أن يعيق الوضع الثوري، ويبدأ الابن في النمو ويستقل ذاتيا بعيداً عن أية وصاية ومن شأن ذلك الوضع أن ينهى التعلق الطفولي القديم بالأب،ويبدو ذلك واضحا في مسلك الابن إزاء النصائح التي تقدم له بالتزام الحذر والهدوء ففي مواجهة هذه النصائح يتجنب الابن المناقشة ولكن حين يطالب بترك الكفاح والعودة إلى كنف الأسرة فإنه يدافع عن موقفه وعن شرعية مسلكه الذي يتبناه، هو لا يصطدم بالأب ولكنه يسعى إلى اكتسابه إلى جانب أفكاره،و هذا هو

(١) المرجع السابق، ص٩٨.

غالبا ما يحدث مع تطور الثورة، فإن الأب ينضم إلى الابن وعندئذ يكون الأب قد قطع مسافة الألف ميل ودفن قيمه القديمة وأسلس القياد لابنه "إن الأب هنا يمحى أمام العالم الجديد، والفتى الجزائري هو الذي يدفع بالأسرة كلها في الحركة الواسعة للتحرر الوطني"[1].

ويشير فانون في كتابه إلى نص أورده جاك لانزمان في مؤلفه يحيا كاسترو وفيه يتحدث عن نفس الظاهرة في المجتمع الكوبي خلال ثورة كاسترو قائلا: "إن واجب الأب في زماننا –في جميع الأزمنة– أن يعلم ابنه وأن ينقل إليه تجربته .وكانت هذه التجربة هي الوشيجة التي تشد أعضاء الأسرة الواحدة بعضهم إلى بعض ....فلم يكن الابن والأب حتى ذلك الوقت إلا رجلا واحدا، إلى أن جاء ذات يوم رجل لاجئ إلى الجبل فانتزع منا أبناءنا،مع أنه هو نفسه صغير السن جدا.هذا الرجل هو نوع من يسوع المسيح .. فما هو وزن أب إذا ما وضع في مقابل يسوع ؟ لا شيء يا سيدي. وقد تساءلنا عندئذ نحن الآباء لماذا غادرنا أبنائنا ويحثنا في رأسنا عن سبب مثل هذا الانفصال،..إن تجربتنا الموروثة تقريبا جيل بعد جيل كانت خاطئة ،فلم تكن تجربتنا تساوى شيئا،فهي لم تكن سوى نسق من الحياة كان ينتقل منذ أجيال على هذا النحو ،من الأب إلى الابن بدون كبير تأمل فيه، وقد كفي لذلك رجل واحد، رجل لم يكن لديه ما يقدمه إلا المثل الأعلى والطهارة ، فكان ذلك أفضل من تجربتنا ومن مالنا ومن مراكزنا"[2]،هذا النص نقل بالكامل؛ لأنه يجسد بشكل واضح كيف تؤثر الثورة في جيل الأبناء بما تقدمه لهم من مثل وقيم جديدة .

ولا يتوقف التغيير عند حدود العلاقة بين الابن والأب ولكنه يتعداها إلى العلاقة مع الابنة.

٢- علاقة الأب مع الابنة :

وهذه العلاقة هي الأكثر تعقيدا خاصة في المجتمعات الزراعية فالبنت تقف مسافة إلى الوراء من الصبي حيث يتمتع الذكر بمركز سيادي، والفتاة لا تملك في هذه

(١) المرجع السابق، ص ١٠٣.
(٢) المرجع لسابق، ص١٠٢.

المجتمعات أي فرصة لتنمية ذاتها وقدراتها وليس أمامها إمكانية المبادرة،فهي في وضع القاصر الموصى عليه دائما وهى خجولة من نفسها ومن كونها امرأة أمام ذويها وتتجنب المناقشة مع الرجال أو الظهور أمام الأب في نطاق الأسرة، وتعيش في عالم جامد من التقاليد والقيود التي تشكل سياجا حولها،هذه الفتاة حينما تدخل معترك حرب التحرير، ستتغير جميع المعادلات والقيم التي كانت تحكم علاقتها بالأب والأسرة، فهي وفي إطار نشاطها الثوري "قد تضطر إلى الاختفاء والهرب وتذهب إلى حيث لا يعلم أحد ولا يجسر الأهل على المعارضة...لأنه بالنظر إلى المأساة التي يعيشها الشعب يصبح الخوف القديم من العار، خوفا أحمق...فلم يعد مسموحا وضع أخلاقية فتاة وطنية موضع الشك"[1]،ويتقبل الأهل فكرة أن تصعد الفتاة إلى الجبل بمفردها مع رجال آخرين دون أن تصلهم أخبارها،وحين تنزل الفتاة من الجبل في أجازة فهي تحمل شخصية جديدة، تجلس قبالة الأب تنظر إليه نظرة مستقيمة وتتحدث إليه، والأب فرح بلقاء ابنته ولا يرى في نفسه حاجة للاستفسار منها عن سلوكها في مراكز المقاومة ذلك أن الأب يقدر الخطوات التي خطاها المجتمع وتفقد هذه الأسئلة معناها وتكون غير ذات قيمة و ويلاحظ أن موقف الأب من ابنته ينسحب على موقفه من الأخريات فيتبدل موقفه منهن بطريقة جذرية، وهكذا فإن البنت في إطار العمل الثوري "تدعو أباها إلى نوع من التحول ومن الاقتلاع للذات ويغدو سؤال امرأة عما إذا كانت (جدية) وهى تواجه خطر الموت يوميا، سخرية وهزءا لاذعا، فالفتاة المناضلة تتبنى مواقف مسلكية جديدة وتختفي القيم والمخاوف المجدبة التي تبقى على الإنسان في هالة الطفولة"[2].

ويذهب التغيير مداه فيطال علاقة الإخوة ببعضهم البعض فلم يعد الأخ الأكبر هو خليفة الأب كما كان من قبل ، وما كان لا يؤتى في حضرة الأخ الأكبر أخذ في التبدل هو الآخر،فأصبح الأخوة يناضلون في موقع واحد ويقاتلون معا يواجهون نفس المخاطر وينخرطون في عمل واحد فتتبدل العلاقات القديمة التي كانت تجرى في الدائرة المغلقة للأسرة وينشأ بينهم نموذج جديد للعلاقات ومختلف عما ألفوه من قبل،وكما تتبدل العلاقة مابين الأخوة،فإن طبيعة المعركة الدائرة والكفاح تبدل العلاقات بين الزوجين.

(١) المرجع السابق، ص١٠٨.

(٢) المرجع السابق، ص١٠٩.

٣- العلاقة بين الزوجين:

أصبحت الفتاة الشابة التي لم يكن من حقها أن تختار زوجها بنفسها وكانت ترى في الزواج" خلاصا من وضعها الغير طبيعي في منزل الأسرة بوصولها إلى مرحلة البلوغ وسن الزواج "[١]،هؤلاء الفتيات هن نفسهن اللائي أصبحن في خضم المعركة "يقسمن الأيمان فيما بينهن على عدم الزواج بمن لا ينتسب إلى جبهة التحرير الوطني "[٢].

وفي العلاقة بين الزوجين فإن طبيعة الكفاح والمعركة التي يخوضونها معا فرضت نمطًا جديدًا من السلوكيات،فلم يعد على سبيل المثال لكل فرد وظيفته المحددة في المنزل فلم تعد العلاقة بينهما هي نفس العلاقات القديمة،فالزوجة المناضلة" والتي كانت تغيب عن منزلها وتعود بعد أربعة ساعات أو أربعة أيام، لم تكن تقدم لزوجها أي تفسير وكان الزوج بدوره يقدر ما تقوم به ؛ لأنه هو الذي جندها وهو الذي لقنها قواعد السرية، هذه التجربة النضالية جعلت الزوجين الجزائريين أكثر التصاقا وعلاقتهما أكثر متانة ذلك أنهما لم يعودا منغلقين على ذاتيهما بل انتزعا من نفسيهما نقاط الضعف التقليدية، فالاختلاط مابين التجربة المقاتلة والحياة الزوجية يعمق العلاقات بين الأزواج ويوثق الروابط فيما بينهما ،فثمة تفتح يحدث للزوج المواطن والوطن في وقت واحد"[٣].

من الاستعراض السابق للتبدل في العلاقات داخل الأسرة يكون واضحاً أن تغيراً بهذا الحجم لم يكن وارداً أن يحدث في أي مجتمع في سياق تطور طبيعي ولكنه يحتاج لكي يتم على هذا النحو إلى قوة دفع كبيرة لا توفره له إلا أجواء معركة كبيرة هي معركة التحرر،و التي لا تقتصر على الخلاص من المستعمر فقط ولكنها توفر في سياقها تحرر الإنسان الفرد من كثير من قيم الجمود وتنزع به نحو التحرر الإنساني الشامل وعلى كافة الأصعدة.

(١) المرجع السابق، ص١٠٥.
(٢) المرجع السابق، ص١١٢.
(٣) المرجع السابق، ص ص ١١٢-١١٣.

ثالثا: الثورة والمجتمع:

فرضت السيطرة الاستعمارية على المستعمر إلى أن يقف موقف الرفض لكل ما يأتي به الاستعمار، والى أن ينأى بنفسه عن هذا العالم ويظل بمعزل عنه،ويتم موقف الرفض هذا دون ما تمييز أو تفريق بين ما يمكن أن يكون إيجابيا أو سلبيا،ذلك أن المستعمر لأسباب متعددة قد يضطر إلى إدخال بعض أساليب التطوير أو التحديث،والمستعمر إدراكاً منه لحقيقة أن أي عمل إيجابي يقوم به المحتل إنما يهدف إلى تيسير وإطالة أمد احتلاله وبالتالي فإن التقدير لأي عمل إيجابي يقوم به المستعمر سيتم توظيفه في إعطاء مشروعية للوجود الاستعماري برمته،وهذا الموقف رغم أنه صحيح تماما إلا أن له جانباً سلبياً يتمثل في أن عملية الربط بين الاستعمار وبين أي محاولة لإدخال التقنيات الحديثة والتي يمكن أن تفيد منها البلاد يؤدى إلى تكريس حالة من التخلف تستمر طوال فترة الخضوع والاستسلام ،هذه الحالة هي نفسها التي نجدها تتبدل وتتغير بقيام الثورة وتتطور مع تطور كفاح التحرير ويصير المواطن منفتحا على التجدد وينزع إلى التعامل مع ما كان يرفضه سابقا ويتخذ منه موقفا سلبيا متشككاً،يبدو ذلك واضحاً في مسألتين خصهما فانون بالدراسة وهما التعامل مع التقنيات الحديثة(في زمانها)وأخذ على ذلك مثلا بالتعامل مع أجهزة الراديو والمسألة الأخرى هي الموقف من الطب الحديث وكيفية التعامل معه.

في دراستها عن الاستعمار والاغتراب ترى R Zaharأن فانون يفسر ميل المستعمَرين إلى رفض التكنولوجيا الوافدة كنوع من عدم الثقة في هذه الأدوات التي من شأنها أن تزيد في استغلالهم وفي نفس الوقت كتعبير صامت وغير منظم للمقاومة السياسية ضد المستعمِرين[1].

١- أجهزة الراديو:

قبل الثورة لم يكن الجزائريون يهتمون بحيازة أجهزة الراديو ولم يكن مرد ذلك إلى عدم القدرة الاقتصادية"؛ لأن كثيراً من الأسر الجزائرية التي كان مستوى حياتها يجعل حيازتها لأجهزة الراديو ممكنة إلا أنها لم تفعل ذلك"[2].

(1) R Zahar, op,cit,. p.36.

(٢) المرجع السابق، ص٦٤.

ويفسر فانون ذلك بأن راديو الجزائر هو عبارة عن محطة إذاعة فرنسية مقامة في الجزائر منذ مئات السنين وأن الشعب الجزائري كان ينظر إليها باعتبارها صدى لمحطات البث الفرنسية المقامة في باريس ويعبر عن المجتمع الاستعماري وقيمه ،ولقد عرف الجزائريون راديو الجزائر بأنه" فرنسيون يتحدثون إلى فرنسيين"[1] و بالتالي فإنها لا تلبى أي حاجة حيوية للمواطن الأصلي، وصار الجزائري يتعامل مع هذه المحطة على أنها عالم المستعمر الناطق وأنها تعمل على غرس ثقافة رجل الاحتلال كما أنها رمز للوجود الفرنسي وبذلك فإن جهاز الراديو كجهاز مادي يكون داخل في الشكل الاستعماري، وإزاء هذا الموقف السلبي فقد عملت الإدارة الاستعمارية على ترويج هذه الأجهزة دون جدوى.

وبقيام الثورة وكفاح التحرير أصبح الجزائري يشعر باحتياجه لمتابعة تطور المجابهة خطوة بخطوة، وأصبح الحصول على جهاز للراديو هو" الوسيلة الوحيدة لحيازة مصدر غير فرنسي للأخبار عن الثورة،وتتخذ هذه الضرورة صفة الأمر الملح عندما يعلم الشعب أن هناك جزائريين يقدمون كل يوم من القاهرة سجلا بكفاح التحرير"[2]،وحدث التحول الحقيقي في آخر عام ١٩٥٦ إذ وزعت منشورات تنبئ بوجود صوت الجزائر الحرة حددت فيها ساعات الإرسال فقام الجزائريون بشراء هذه الأجهزة لدرجة نفاذها من الأسواق خلال عشرين يوما، وما كان ينظر إليه على أنه قبول بتكنيك حديث للإعلام الاستعماري فقد صفته السلبية وأصبح ينظر إليه على أنه الوسيلة الوحيدة لمباشرة الاتصال بالثورة ومعايشتها،فلم يعد الراديو جزء من ترسانة الضغط الثقافي الذي يمارسه رجل الاحتلال ، بل أنه أصبح وسيلة للمقاومة؛ لأن الجزائري أصبح يملك إمكانية الاستماع إلى صوت" يشرح له المعركة ويعمل على اندماجه في تنفس الأمة الجديد"[3]،ذلك أن الاستماع إلى صوت الجزائر المقاتلة هو إتحاد بجسم الأمة التي تكافح .

الغريب أن السلطات الفرنسية التي كانت تعيب على الجزائريين عدم حيازتهم لأجهزة الراديو وعملت بكل الوسائل على ترويج مبيعات هذه الأجهزة في السابق،هي نفسها مع الظروف المتغيرة وبعد أن أدركت أهمية هذا الجهاز والذي

(١) المرجع السابق، ص ٦٩.
(٢) المرجع السابق، ص٧٨.
(٣) المرجع السابق، ص٨٢.

أصبح يستخدم لمتابعة إنجازات الثورة وكوسيلة من وسائل الإعلام بالثورة، صارت تأخذ موقفا مغايراً فأصبح بيع هذه الأجهزة ممنوعاً إلا بعد الحصول على موافقة بذلك من الجهات العسكرية والأمنية الفرنسية.

هذا المثال الذي استخدمه فانون يعبر أصدق تعبير عن طبيعة التبدل والتحول الذي تحدثه الثورة ومعارك التحرير في إمكانية تطور المجتمعات.

٢- الطب الحديث:

كما سبق القول، فإن المستعمَر ينظر بعين الشك إلى كل ما يأتي به المستعمِر، ذلك أن التناقض بين ما يمكن أن يكون عقلانية جزئية لبعض المؤسسات وتزامنه مع عدم العقلانية الكامل للنظام الاستعماري ككل يولد اضطراباً في نفس المستعمَرين ويجعل كل سلوكهم مضطربا تجاه كل مؤسسات النظام[1] ولأن العلم الطبي الحديث أدخل إلى الجزائر متزامناً مع الاستعمار، فقد أدى ذلك إلى إفساد العلاقة بين الطبيب والمريض،إذ أن النظرة إلى الطبيب أصبحت محكومة دوما بأنه يمثل قوة الاحتلال وأنه يمثل حلقة في النظام الاستعماري، وساعد في تكريس هذه النظرة، أن الزيارة التي كان يقوم بها الطبيب الأوروبي إلى القرية، كانت تسبقها مساعي سلطات البوليس لحشد الأهالي، فصار هناك ربطا عضويا بين الطبيب والشرطي،هذا الوضع الملتبس أدى بالمستعمر إلى أن ينظر إلى ما ينشر عن الإنجازات الصحية، على أنها تأكيد من رجل الاحتلال على إظهار إنجازاته، وبالتالي فأي اعتراف بهذه الإنجازات سيؤخذ على أنه دعوة لإدامة الاحتلال، ويترتب على ذلك موقف الرفض الذي يعبر عن نفسه في مقولة "لم يطلب منكم أحد شيئا،من ذا الذي دعاكم ؟ خذوا مستشفياتكم وتجهيزاتكم وعودوا إلى بلادكم "[2]،هذا الموقف السلبي يعززه سلوك الأطباء الأوروبيين الذين ينعمون بمستوى حياة مرتفع من ممارستهم؛ لأنشطة بعيدة عن مهنتهم الطبية، فغالبيتهم من أصحاب الأراضي الزراعية وبساتين البرتقال وأصحاب مطاحن وخوابي للخمر، و بالتالي فالطبيب الأوروبي لا يتحدد مركزه

(1) R Zahar, **op,cit,**. p.38.

(٢) المرجع السابق، ص ١٢٥.

الاجتماعي بممارسته للمهنة، كما أن كسبه لا يأتيه من زبائنه وإنما من موارد أخرى، ويعكس ذلك نفسه على أخلاقيات المهنة والممارسة الطبية التي تصيبها حالة من التردي.

وبسبب من مستوى الحياة المرتفع الذي يوفره الوضع الاستعماري فإن الأطباء الأوروبيين يهتمون ببقاء الاضطهاد الاستعماري وأصبحوا يشكلون في المستعمرات جزءا من الهيئة الاستعمارية ومن السيطرة ومن الاستغلال وتمادوا في تعاونهم مع السلطات الاستعمارية، باستخدام وسائلهم الطبية في إطالة أمد التعذيب للمواطنين الجزائريين الموقوفين في مراكز لشرطة حيث يقومون اثر كل جلسة تعذيب بإعادة المعذب إلى حالته الطبيعية فيجعلون من الممكن إجراء جلسات التعذيب مرة أخرى هذا إلى جانب كثير من المخالفات الأخرى، هذه الأمور كانت تجرى يوميا في الجزائر فحلت التصرفات السيئة محل الأخلاق الطبية واحترام الذات.

جملة هذه الممارسات السيئة دفعت المواطن إلى يقيم بينه وبين الأطباء الأوروبيين حاجزا وفرضت عليه مواقف الشك والريبة فيهم، حتى وصل الأمر إلى أن المواطن الجزائري كان يفسر الموت الطبيعي لأحد المرضى في المستشفيات، على أنه تصميم على القتل، فيتولد إحساس من الشك في إنسانية الطبيب المستعمر يؤدى بالجزائريين إلى الهروب من دخول المستشفى، وفيما يبدو فإن أزمة الثقة هذه تأخذ صفة العموم في كل المجتمعات المستعمرة، "فيشير الصحافي الأرجنتيني جيللى إلى أنه سأل مرة رجلا بوليفيا فقيرا من عمال المناجم عن السبب الذي منعه من إرسال ابنه إلى مركز الخدمة الصحية الأمريكي المجاور ليجرى تطعيمه فرد على الفور (من يدرى أي نوع من المطاعيم القذرة يحقننا بها هؤلاء الأمريكيون لكي يحولوا الشعب البوليفي إلى شعب يتصف بالبلاهة والغباء ليسهل استغلاله)"[1] ويخلص فانون إلى أن هذا الوضع المأساوي يعنى في النهاية أن التلاقي مستحيل في ظل الوضع الاستعماري....فليس ممكنا أن يتوصل المجتمع المستعمَر والمستعمِر إلى أن يكونا على اتفاق لاحترام قيمة وحيدة في وقت واحد وفي مكان واحد[2].

وفيما يتعلق بالطبيب الأهلي فالنظرة إليه لا تختلف كثيرا عن الطبيب الأوروبي،

(1) David Caute, **Op.cit.**, P.89.

(٢) فانون، سوسيولوجيا الثورة، م س ذ، ص ص ١٢٨-١٣٩.

فأصبح الطبيب الأهلي في نظر الأهالي أوروبيا غريبا لا يشكل جزءا من المجتمع الخاضع للسيطرة، إنه في معسكر الخصم ولا يختلف عن الشرطي المنتمي للسكان الأصليين.

وبقيام الثورة نشأ واقع مختلف وأصبحنا أمام حقائق مختلفة،فأصبح الشعب يتخلى عن سلبيته القديمة والطبيب الجزائري الذي كان يعتبر سفير رجل الاحتلال، أصبح الآن مندمجا في الجماعة، وجُرِدّ التكنيك الطبي من صفاته الأجنبية، وتم فك الارتباط بينه وبين تلازمه مع الاستعمار، وأصبح الطبيب الأهلي هو طبيب"نا" نحن وخبير"نا" نحن وأدخلت حرب التحرير الخبرة الطبية والطبيب الأهلي في الحياة اليومية، وأصبح الأطباء يقيمون وسط قراهم فالثورة والطب يتواجدن معا وأصبح الشعب يريد أن يشفي وأن يعالج وبدأت الطرق التقليدية تنمحي فانهارت أعمال السحر، ونتيجة للعمل والممارسة الثوريين تزعزعت جميع الأمور الراسخة والمستقرة.

و اللافت للنظر في هذه الحالة أيضا أن موقف الاستعماريين قد تبدل هو الآخر بشكل عكسي فبعد أن كانت زيارة الطبيب الأوروبي تتم في ظل قوة الشرطة لتجميع الأهالي وبعد أن كان الاستعماريون يتباهون بما حققوه من إنجازات صحية وكان " العلم الطبي والاهتمام بالصحة يفرضان دائما على الشعب بواسطة القوة المحتلة"[1]، أصبح الاستعماريون يفرضون على أي طبيب يساعد جزائريا ويشتبه في جرحه أن يأخذ اسم المريض وعنوانه ومرافقيه ويسلم الملف الخاص بهم إلى السلطات، ومنع الصيادلة من تسليم بعض الأدوية المهمة والضرورية وفرضت رقابة أمنية على الصيدليات لضمان تنفيذ هذه التعليمات، والمفارقة هنا أيضا واضحة في "أنه في اللحظة التي يقرر فيها الشعب الجزائري التقدم للعلاج الطبي، يقدم النظام الاستعماري على منع بيع الأدوية إليه، وفي اللحظة التي يريد فيها الجزائري أن يحيا ويعتني بنفسه وصحته فإن القوة المحتلة تحكم عليه بأن يكابد الموت"[2].والمعنى الذي يمكن استخلاصه من طبيعة التغيرات التي تحدث في موقف المواطن الأهلي وفي نظرته إلى جميع الأمور بما فيها الموقف من التقدم العلمي والتحول الإيجابي الذي يحدث في هذا الخصوص أثناء كفاح التحرير وفي غماره تعنى شيئا أساسيا وهو أن "

(١) المرجع السابق، ص١٤٤

(٢) المرجع السابق، ص١٤٥.

الشعب الذي يتسلم زمام قدره بيديه يستسيغ بإيقاع يكاد أن يكون خارقا للعادة أحدث أشكال التكنيك"[1].

وإجمالًا فإن ما تم استعراضه في هذا المبحث يصل إلى تأكيد حقيقة أن الثورة التي يقوم بها الشعب للحصول على استقلاله وحريته يمتد تأثيرها إلى كل مناحي الحياة وعلى كل المستويات الفردية الشخصية أو الجماعية على مستوى الأسرة والمجتمع ككل، وأن الثورة تحمل معها روحا جديدة وقوة دفع تضع المجتمع كله على أعتاب مرحلة جديدة يتخلص فيها من سلبيات المرحلة الاستعمارية وجمودها.

(١) المرجع السابق، ص ١٥١.

obeikandl.com